خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٥/١١/٢١

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

كان الحديث جاريا عن غزوة تبوك، وسأتناول اليوم مزيدا من تفاصيل هذا السفر.

ضمن وقائعها ذُكرت أيضا محاولة المنافقين إيذاء رسول الله ﷺ، وبيان ذلك: الْحَقِيقَة أنه كَانَت وَرَاءَ غَزْوَةِ تَبُوكَ مُؤَامَرَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ، فَلَمَّا فَشِلَتْ مَخَطَّطَاتُهُمْ كلها وَعَجَزُوا عَنِ القضاء على الْإِسْلَامِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَفَشِلَتْ مُحَاوَلَاتُ قَتْلِهِ ﷺ مِرَارًا، كَانَتْ هَذِهِ الْخُطَّةُ محاولتهم الأخيرة. وَلَوْلَا النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ الْإِلَهِيُّ كَمَا فِي الْمَاضِي، لَكانت هَذِهِ المحاولة أَكْثَرَ مُحَاوَلَاتِ الْمُنَافِقِينَ نَجَاحًا دون شك، إِذْ كَانَ هَلَاكُ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ أَمْرًا مُؤَكَّدًا. لَكِنَّ الله الَّذِي نَصَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ بِطَرِيقَةٍ لَا تُصَدَّقُ، وَاسْتَمَرَّ تَأْيِيدُهُ حَتَّى غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، وَالذي حَفِظَ النَّبِيَّ ﷺ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ خَطِيرٍ، قد أبدى المعاملة نفسها هُنَا أيضا. كَانَ السَّفَرُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى تَبُوكَ كَسَفَرٍ فِي وَادِي الْمَوْتِ، فَالْوُصُولُ بِسَلَامَةٍ إِلَى تَبُوكَ ثُمَّ الْعَوْدَةُ منها كَافِيَيْنِ لِإِرْبَاكِ الْمُنَافِقِينَ. ثُمَّ هروب جُيُوشِ قَيْصَرَ الرُّومِ الْمُدَعَّمَةِ أَوْ عَدَمُ مُوَاجَهَتِهَا خَوْفًا، أَمْرٌ مُذْهِلٌ آخَرُ. وإن أَصَابَت جَمِيعَ الْقُوَى الْمُعَادِيَةِ عَلَى حُدُودِ الْعَرَبِ هزةً فرأى أَكْثَرُهُمْ في المجيء إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَالِبِينَ الصُّلْحَ وَدَفْعَ الْجِزْيَةِ خيرا لهم. كُلُّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ دَمَّرَتْ مَخَطَّطَاتِ الْمُنَافِقِينَ، إِذْ لم يكن ليخطر بِبَالِهِمْ أَنْ يَعُودَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ أَيُّ مُسْلِمٍ إِلَى الْمَدِينَةِ سالما. لذا فَلَمَّا بَدَأَ جَيْشٌ قوامه ثلاثون أَلْفًا الْعَوْدَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ رافعا أَعْلَامَ النَّصْرِ تَحْتَ قِيَادَةِ نبيّهم الْحَبِيبِ ﷺ، رَأَى الْمُنَافِقُونَ ضروريا أَنْ يُطْلِقُوا سَهْمَهُمُ الْأَخِيرَ من كنانتهم، وَهُوَ أَلَا يَصِلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ (والعياذ بِاللَّهِ) بأي حال. فَخَطَّطُوا لِقَتْلِهِ ﷺ. ليس مستبعدا أن هَذِهِ الْمُؤَامَرَةَ كَانَتْ مُعَدَّةً سلفا كَضَرْبَةٍ أَخِيرَةٍ، زعما منهم أَن المسلمين سيَمُوتُون أولا ويهلكون فِي الطَّرِيقِ أَوْ فِي تَبُوكَ، وإِنْ نجوا وأرادوا العودة فسيُهْلَكُوا فِي الْعَوْدَةِ.

وَيَصِحُّ هَذَا الْقِيَاسُ لِأَنَّ كِبَارَ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَكُونُوا مَعَهُمْ، بَلْ كانت جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ فِي الْجَيْشِ وما كانت تقصّر في نشر الدعاية المعادية والسامة فِي كُلِّ فُرْصَةٍ، ولكن ما كان لهم أن يتشجعوا عَلَى خُطْوَةٍ كَبِيرَةٍ كهذه إِلَّا إذا كانت مخططة سلفا.

عَلَى أَية حَالٍ، نَفَّذُوا هَذِهِ الْمُؤَامَرَةَ الْخَطِيرَةَ على النحو التالي: فِي الْعَوْدَةِ كَانَ الطَرِيق يتفرع في الوادي إلى طريقين، طريق واسع يمر بالميدان وَطَرِيقٌ ضَيِّقٌ يَمُرُّ بِوَادٍ عَالٍ وَعَسِيرٍ. هذا الطريق كان مختصرا أيضا. وَكَانَ عَلَى جَيْشِ المسلمين أن يمر مِن هَذَا الْوَادِي. خَطَّطَ الْمُنَافِقُونَ أَنْ يَجْتَمِعُوا عِنْدَ ذُرْوَةِ الْوَادِي عِنْدَمَا يَمُرُّ الْجَيْشُ كُلُّهُ وَيَحْدُثُ ازْدِحَامٌ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ (إذ كَانَ السَّفَرُ لَيْلًا)، أنهم سيقتربون مِنْ نَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَيَدْفَعُونَهَا بطريقة أو بأخرى إِلَى حَافَّةِ الْوَادِي، وَسَيَقْطَعُون حِبَالَ الرحل، فَتُلْقِيَ بِهِ ﷺ فِي الهوّة، والعياذ بِاللَّهِ، أَوْ تَسْقُطَ هِيَ مَعَهُ، وَفِي ظَلَامِ اللَّيْلِ سيُعدّ ذلك حَادِثًا فحسب وَلَن يَشُكَّ أَحَدٌ فِي أنه كان هجوما بهدف القتل.

يقول عُرْوَة بْن الزُّبَيْرِ: لَمَّا انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَبُوكَ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَمَّتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بِقَتْلِهِ وَاتَّفَقُوا عَلَى أنهم سيلقونه مِنْ ذُرْوَةِ عَقَبَةٍ فِي الطَّرِيقِ. ولَكِنْ أَخبر اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ ﷺ عن مُؤَامَرَةِ المنافقين هذه في الوقت المناسب تماما، فَأَعْلَنَ أَلَا يَمُرَّ أَحَدٌ مِنَ الْعَقَبَةِ إلا هو ﷺ مَعَ ثَلَاثَةٍ من صَحَابَته: (أي أعلن النبي ﷺ أنه وحده سيمر بهذه العقبة، أما الآخرون فيمرون كلهم من الميدان)، وهم حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَحَمْزَةُ بْنُ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيُّ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ. وَأَمَرَ بَاقِيَ الْجَيْشِ بِالْمُرُورِ مِنَ الْوَادِي الْوَاسِعِ. أَفْسَدَ هَذَا التَّغْيِيرُ الْمُفَاجِئُ فِي الطريق خُطَّة المنافقين، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتْرَاجَعُوا عَنْ نِيَّتِهِم الْخَبِيثَةِ، فَاخْتَارُوا ١٢ أَوْ ١٥ رَجُلًا فورا وَاتَّفَقُوا عَلَى أن يغطّوا وُجُوههمْ بالثوب، وينطلقوا سَرِيعًا إِلَى الْعَقَبَةِ، ويُركضوا الناقة ويُرعبوها فجأة بحسب الخطة المتفق عليها سلفا حَتَّى يَحْدُثَ الْحَادِثُ الذي كانوا يتوقعونه، والعياذ بِاللَّهِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وبينما كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ فِي الْعَقَبَةِ سَمِعَ أَصْوَاتَ الناس، فَاقْتَرَبُوا منه ﷺ وَأَرْعَبُوا النَّاقَةَ فَسَقَطَ منها بَعْضُ الْأَمْتِعَةِ. فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ حُذَيْفَةَ بِالْهُجُومِ عَلَى هؤلاء المنافقين وَطَرْدِهِمْ، فَأخذ حُذَيْفَةُ يضرب دَوَابَّهُمْ بِالْعَصَا وَقَالَ: "أَعْدَاءَ اللَّهِ، تَنَحَّوْا". عَرَفَ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ عَلِمَ بِمَكْرِهِمْ، وَما كانوا يُرِيدُون أَنْ يُعْرَفُوا فَنَزَلُوا من العقبة سَرِيعًا وَاخْتَلَطُوا بِالْجَيْشِ. جاء حُذَيْفَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "يَا حُذَيْفَةُ، اضْرِبْ نَاقَتِي مِنَ الْخَلْفِ، وَيَا عَمَّارُ، سُقْهَا مِنَ الْأَمَامِ"، لتأخذ طريقها الصحيح بعد أن كانت قد خَافَتْ وَجفلتْ.

وفي رواية عن حذيفة أنه قال: لما صرنا بالعقبة إذا باثني عشر رجلا قد اعترضوه فيها، قال فأنبهت رسول الله ﷺ فصرخ بهم فولّوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: "هل عرفتم القوم؟" قلنا: لا يا رسول الله ﷺ قد كانوا ملثمين، ولكنا قد عرفنا الركاب (لقد كان العرب يتعرفون من خلال المراكب أيضا)، قال: "هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة. وهل تدرون ما أرادوا؟" (وجّه ﷺ هذا السؤال لأصحابه الذين كانوا معه، يقول الراوي:) قلنا: لا، قال ﷺ: "أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيلقوه منها". قلنا: يا رسول الله أو لا

تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ (وذلك ليعاقبوا ويقتلوا). قال ﷺ: "لا، أكره أن يتحدث العرب أن محمدا قاتل لقومه".

وورد فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَرِيبًا منه فنادَى ﷺ: "مَنْ هُنَا؟". قَالَ: أَنَا حُذَيْفَةُ. قَالَ ﷺ: "سَأُخْبِرُكَ بِسِرٍّ لَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ". ثُمَّ سَمَّى أَسْمَاءَ هؤلاء المهاجمين وَاحِدًا وَاحِدًا، وَقَالَ ﷺ: "قَدْ مُنِعْتُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ، فإنهُمْ مُنَافِقُونَ".

وفق الروايات أخبر النبي ﷺ عن أسماءِ ١٢ أَوْ ١٣ أَوْ ١٥. وبما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ حُذَيْفَةَ بِكِتْمَانِ السِّرِّ، لَمْ يُفْشِهِ أَبَدًا، فلما علم عمر أن حذيفة من شهود العيان لهذه الواقعة ويعرف أسماء هؤلاء فكان في خِلَافَته إذا شك في أحد يَأْخُذُ بيَد حُذَيْفَةَ فِي جنازته، فَإِنْ امْتَنَعَ حذيفة عَلِمَ عمر وَتَرَكَ الصَّلَاةَ عليه.

وورد في رواية في صحيح مسلم أنهم كانوا ١٤ أَوْ ١٥، لَكِنَّ ١٢ مِنْهُمْ مُنَافِقُونَ شَارَكُوا فِي الْمُؤَامَرَةِ، وَثَلَاثَةٌ آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ صَعِدُوا الْعَقَبَةَ لَكِنَّهُمْ فعلوا ذلك لأنهم لَمْ يَسْمَعُوا الْإِعْلَانَ بِاخْتِيَارِ الطَّرِيقِ الْوَاسِعِ، فَعُذِرُوا.

عَلَى أَيةِ حَالٍ، لَمَّا أَصْبَحَ الصُّبْحُ جَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ سَيِّدُ الْأَوْسِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ هَمُّوا لَيْلًا بِمُتَابَعَتِهِ فِي الْعَقَبَةِ وَقَطْعِ حَبْلِ النَّاقَةِ وَوَخْزِهَا بِشَيْءٍ حَادٍّ لِتَرْكُضَ حَتَّى تُسْقِطَهُ. قَالَ أُسَيْدُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، فمُرْ كل بطن أن يقتل الرجل الذي همَّ بهذا». ثم قال أسيد بحماس: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَتْرُكُهُمْ هَكَذَا؟ مَتَى نَنْتَهِي مِنْ مُدَارَاتِهِمْ وَهُمْ الْيَوْمَ قَلِيلُونَ وأذلة وَقَدْ ثَبَتَ الْإِسْلَامُ؟» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أُحِبُّ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ إِنَّ مُحَمَّدًا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بَدَأَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ». قَالَ أُسَيْدُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَؤُلَاءِ لَيْسُوا أَصْحَابًا لك ولنا». قَالَ ﷺ: «أَلَيْسُوا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: «بَلَى، لَكِنْ لَا شَهَادَةَ لَهُمْ» لأنهم يرددون الشهادة بلسانهم أما قلوبهم فخالية عن كل شهادة. قَالَ ﷺ: «إنهم يعترفون بالشَّهَادَةِ ولو بلسانهم لذلك لَا أَقْتُلُهُمْ».

ينبغي للعلماء المزعومين اليوم والذين يفتون بقتل من يدلي بالشهادتين أن يضعوا نصب أعينهم قول النبي ﷺ هذا. يقول حضرة المصلح الموعود رضي الله عنه:

لَمَّا عَلِمَ مُنَافِقُو الْمَدِينَةِ أَنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ قِتَالٌ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عاد بِسَلَامَةٍ، فَهِمُوا أَنَّ أَسْرَارَ نِفَاقِهِمْ قَدِ انْكَشَفَتْ على رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُمْ لَنْ يَنْجُوا مِنَ الْعِقَاب الآن. فعيّنوا بَعْضَ الرِّجَالِ فِي طَرِيقٍ ضَيِّقٍ جِدًّا عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْمَدِينَةِ لَا يَمُرُّ فِيهِ إِلَّا رَاكِبٌ وَاحِدٌ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمَكَانِ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَحْيِ أَنَّ الْعَدُوَّ مُخْتَبِئٌ عَلَى جَانِبَيِ الطَّرِيقِ. فَأَمَرَ صَحَابِيًّا أَنْ يَذْهَبَ ويتفقد الأمر. فَرَكِضَ وَوَصَلَ فَرَأَى بَعْضَ الرِّجَالِ مُخْتَبِئِينَ كَمَا يَخْتَبِئُ الْمُهَاجِمُونَ. (هناك روايات متعددة بهذا الخصوص وإحداها هذه الرواية التي ذكرها المصلح الموعود) فَلَمَّا وَصَلَ الصحابي إليهم هَرَبُوا، لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرَ الْمُطَارَدَةَ مُنَاسِبَةً.

لَمَّا وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بَدَأَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ لَمْ يَشْتَرِكُوا فِي الْغَزْوَةِ يَقْدِمُونَ أَعْذَارًا مُخْتَلِفَةً، فَقَبِلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. لَكِنْ قَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِكَشْفِ حَقِيقَةِ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُسْلِمِينَ». فَقَدْ تحقق ذلك.

وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ بعضَ الروايات تختلف في كيفية اختباء هؤلاء أو تقدمهم أو كيفية تصرُّفهم، لكن الحادثة المذكورة واحدة في كل المصادر، وهي أنَّهم حاولوا إلحاق الضرر بالنبيِّ ﷺ في ذلك الوادي الضيّق، والعياذ بالله.

وكما تقدَّم ذكره، فإنه بعد فتح مكة ازدادت وتيرةُ مؤامرات المنافقين، ولما رأوا أن قبائل العرب المحيطة – بما فيها قبائل اليهود – قد فقدت قوتها وأصبحت خاضعة تمامًا، خططوا لاستجلاب العون من قوى خارجية كبيرة مثل قيصر الروم، وفي الوقت نفسه وضعوا برنامجًا لبناء مركز دائم في المدينة يجتمعون فيه باستمرار لنسج المكايد ضد الإسلام والمسلمين، وتخزين الأسلحة وغيرها، لكن هذا المركز يجب أن لا يشك فيه المسلمون الآخرون. فجأة ظهر أبو عامر – الذي كان غائبًا عن الأنظار منذ مدة – وأخذ الذين كانوا يقومون بالدعاية للمنافقين يلقبونه بـ "أبي عامر الراهب". وهو قد اقترح عليهم أن يبنوا مسجدًا في قباء ليتخذوه كالمركز.

نجد في التاريخ عن أبي عامر أنه كان مشهورا بـ"الراهب" وينتمي إلى الخزرج. وقد ورد ذكره في الخطب السابقة. كان أبو عامر قد ذهب إلى مكة إثر قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، وحرَّض قريشًا على حرب النبي ﷺ وقال لهم: أنا معكم، وقومي تحت إمرتي، عندما ستحاربون محمدًا سوف نلحق بكم. ثم شارك مع قريش في غزوة أحد. ولما رأى ازدهار الإسلام أصابه اضطراب كبير وبدأ يحترق حسدًا وكمدا، وهو الذي كان قد أمر بحفر الحفر في ميدان أُحد فوقع النبي ﷺ في إحداها فأصيب إصابة شديدة. وكان أبو عامر حين بدأ القتال نادى قومه قائلا: يا أفراد قبيلتي، أنا أبو عامر. لكنهم كانوا قد أسلموا فردُّوا عليه: لا مرحبًا بك أيها الفاسق، فلعنوه ولاموه، فقال: لقد فسد قومي كثيرا بعدي.

ثم انتقل كثير من قبيلة أبي عامر الذين كانوا يعادون رسول الله ﷺ إلى مكة، فالذين لم يُسلموا كانوا قد انتقلوا معه إلى مكة، وكان عددهم نحو خمسين رجلاً.

ورد في الروايات أن النبي ﷺ دعا على أبي عامر أن يموت بعيدًا عن وطنه وحيدًا غريبًا.

وفي رواية أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة زاره أبو عامر، فسأله: إلى أي شيء تدعو يا محمد؟ فقال ﷺ: "أدعوك إلى الدين الحنيف الذي تدَّعي أنك تبحث عنه".

فقال: «أفأنت على ذلك الدين؟» قال ﷺ: "نعم وبكل تأكيد".

ثم دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأبى، وسبَّ النبيَّ حسدًا، وقال مستهزئًا: أيُّنا يكون كاذبا فليُمِته الله غريبًا وحيدا، وكان يقصد النبيَّ ﷺ، فردَّ النبي ﷺ: "أجل، هذا ما سيفعل الله بالكاذب حصرا". ثم ظل أبو عامر ينهى قومه عن اتباع رسول الله ﷺ ويطلب منهم بإلحاح أن لا يطيعوه ﷺ، بينما كانت معجزات

النبي ﷺ وكراماته تظهر يومًا بعد يوم، وكان يَكثر أتباعه أيضا، وخاصة أفراد قبيلة أبي عامر، مما زاده غيظا، فبنى بتعاون المنافقين مسجدا يُعرف في تاريخ الإسلام بـ "مسجد الضرار"، ليجمع فيه الناسَ ويتكلم معهم ويصدّهم عن اتباع النبي ﷺ.

وفي رواية أن أبا عامر قال لأتباعه من المتآمرين: ابنوا مسجدًا واتخذوه قاعدة عسكرية وتجهزوا للحرب، وأنا ذاهب إلى قيصر الروم لآتي بجيش جرار لكي نتمكن من إخراج محمد وأصحابه من المدينة. ثم توجه إلى الحكومة الرومية وقابل قيصر ملك الروم، وحاول تحريضه على حرب النبي ﷺ والمسلمين، وقال له: إنهم لشرذمة قليلون من الضعفاء، وأعداؤهم كثيرون، لا تخشينَّهم مطلقا، وإن تركتَهم اليوم سيكونون خطرًا على مملكتك غدًا. فأقامه قيصر الروم عنده ووعده بالنصر. وكتب أبو عامر إلى أتباعه الخبيثين المتآمرين يبشرهم بأنه سيهاجم المدينة المنورة بجيش عظيم قريبا، وأمرهم بإعداد مكان خاص له، فمن أجل ذلك بنى المنافقون في قباء مسجدا يقال له مسجد الضرار. لكن رغبته هذه أيضا لم تتحقق فمات في الشام غريبًا وحيدًا. (كان قد دعا بنفسه ضد النبي ﷺ لكن دعاءه انقلب عليه هو) وفي سنة وفاته اختلاف، فعند البعض مات في العام التاسع الهجري وعند البعض كانت وفاته في العام العاشر، ومن المؤكد أنه مات وحيدا.

فلما فرغ المنافقون من بناء المسجد جاءوا النبيَّ ﷺ وطلبوا منه أن يصلي فيه. ومن حكمة الله أنهم طلبوا منه ﷺ افتتاح هذا المسجد المزعوم حين كان النبي ﷺ يتجهز للخروج إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، وإنَّا نحب أن تأتينا وتصلي بنا فيه. فقال لهم رسول الله ﷺ إنني الآن مشغول وعلى جناح سفر، عندما نعود من السفر فسوف نصلي هناك. فلما رجع النبي ﷺ من تبوك ونزل بذي أوان — وهي على بُعد ساعة من المدينة — نزلت بحق هذا المسجد الذي بناه المنافقون الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ١٠٧) فدعا النبيُّ ﷺ سيدَنا مالكَ بن الدُّخْشُم وسيدنا مَعْن بن عَدِيّ وأمرهما بهدم مسجد الضرار. وفي بعض الروايات أرسل ﷺ معهما أيضًا سيدنا عاصم بن عدي وعامر بن السكن ووحشي قاتلَ سيدنا حمزة وسويد بن عباس أيضا. وقد ورد في شرح الزرقاني أن من المحتمل أن يكون أرسل ﷺ اثنين أولًا ثم أربعة للمعونة. على كل حال أرسلهم ﷺ لهدم مسجد الضرار وحرقه، فوصل كل هؤلاء سريعا إلى قبيلة بني سالم. فقال مالك رضي الله عنه لصاحبيه: أَنْظِراني حتى أخرج إليكما، فدخل إلى أهله وأخذ سعفًا من النخيل فأشعل فيه نارا، ثم أتوا مسجد الضرار بين المغرب والعشاء، وحرقوه وهدموه حتى وضعوه بالأرض. وكان الذين بنوا ذلك المسجد موجودين هنالك ففروا عند اشتعال النار فيه. فلما قدم رسول الله – ﷺ – المدينة عرض على عاصم بن عدي مكان المسجد ليتخذه دارا، فاعتذر عاصم وقال يا رسول الله: ما كنتُ لأتخذ مسجدا – قد أنزل

الله فيه ما أنزل – دارا، ولست بحاجة إليه، ولكن أَعْطِه ثابتَ بن أقرم فإنه لا منزل له، فأعطاه رسولُ الله – ﷺ – ثابتَ بن أقرم.

وقد ذكر ابن إسحاق أسماء المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار وكانوا ١٢ شخصا.

وهذه من أبرز الأمثلة على رحمة النبي ﷺ الواسعة، وسعة صدره، وعفوه وصفحه، حيث أنه رغم تعرضه لمؤامرات خطيرة لإيذائه بل لاغتياله، ورغم أنه قبض على المنافقين المتآمرين متلبسين فيها، إلا أنه كان ﷺ يعفو عنهم في كل مرة، ولا يعاقبهم إلا إذا كان هناك خطر يهدد الدولة والنظام، وفي هذه الحالة أيضا كانت العقوبة بقدر ما يقضي على الخطر فقط، مع أنه كان بإمكانه أن يوقع بهم أقسى العقوبات.

لقد قال حضرة المصلح الموعود ﷺ وهو يتحدث عن مؤامرات المنافقين:

لقد أمر الله رسوله ﷺ بالوحي أن يهدم المسجد الذي بناه المنافقون في قباء لكي يجتمعوا فيها بحجة الصلاة لنسج المؤامرات، وأن يُجبرهم على الصلاة في مساجد المسلمين الأخرى، ومع ارتكابهم هذه الجريمة الكبرى ومع علمِ النبي ﷺ بتورطهم فيها إلا أنه لم يعاقبهم بأي عقوبة بدنية أو مالية.

ونجد ذكر تعبير النبي ﷺ عن حبه للمدينة والأنصار كالآتي: قفل النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة بعد سفر استغرق حوالي شهرين، فعبر عندها عن عظيم حبه للمدينة لأهلها حيث إنه لما أَشْرَف عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: "هَذِهِ طَابَةُ، وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ". وطابةُ أحدُ أسماء المدينة المنورة ومعناه الطيبة الرائعة. وندرك من هنا مدى حب النبي ﷺ لكل مكان من أماكن المدينة، وقد ذكر ﷺ جبل أحد خاصة لأنه لم ينس قط قصص الإخلاص والوفاء التي سجلها الصحابة بدمائهم الزكية.

وفي رواية أن النَّبِيّ ﷺ قال: "إِنِّي مُتَعَجِّلٌ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَعَجَّلَ مَعِي فَلْيَتَعَجَّلْ". ثم قال:

"أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ دُورِ الْأَنْصَارِ؟". قَالُوا بَلَى. قَالَ: "دُورُ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ دُورُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمَّ دُورُ بَنِي سَاعِدَةَ، أَوْ دُورُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ يَعْنِي خَيْرًا". ثم يقول الراوي: فلَحِقَنا سعدُ بنُ عبادة، فقال له أَبو أُسَيْدٍ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَيَّرَ الْأَنْصَارَ فَجَعَلَنَا أَخِيرًا. فَأتى سَعْدٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ خيَّرتَ دُورَ الْأَنْصَارِ فَجعلتَنَا آخِرًا! (هذا يعني أن الصحابة كانوا يرون أيضا أين مكانهم فيمن يثني عليهم النبي ﷺ) فَقَالَ ﷺ: "أَوَلَيْسَ بِحَسْبِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِن الْخِيَارِ". أي يجب أن يكفيكم أني ذكرتكم وجعلتكم في عداد الأخيار.

وكما سبق بيانه فإن الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك كانوا فريقين كبيرين: أحدهما: المنافقون الذين أظهر الله تعالى سخطه عليهم، والآخر: جماعة من المؤمنين المخلصين الذين أرادوا الخروج للجهاد، لكنهم إما كانوا فقراء جدًّا فلم يجدوا – مع كل جهدهم – وسيلة ولا زادًا يمكّنهم من الخروج، أو كانوا مرضى أو معاقين فلم يتمكنوا من الخروج، وقد تقبّلَ الله تعالى عذرهم في القرآن الكريم في سورة التوبة: الآيتين ٩١ و٩٢).

فقد نقل البخاري رواية بأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما اقترب من المدينة عندما عاد من غزوة تبوك قَالَ: "إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ". فقال الصحابة مستغربين: كيف كانوا معنا وهم جالسون في المدينة؟ فقال ﷺ: "إنهم في المدينة وقد حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ من مرض أو غيره".

وفي رواية أن النبي ﷺ لما قفل من تبوك شكر الله تعالى وقال: "الْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَا رَزَقَنَا فِي سَفَرِنَا هَذَا مِنْ أَجْرٍ وَحَسَنَةٍ وَمِنْ بَعْدِنَا شُرَكَاؤُنَا فِيهِ". فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : يَا رَسُولَ اللهِ أَصَابَكُمْ السّفَرُ وَشِدّةُ السّفَرِ وَمِنْ بَعْدِكُمْ شُرَكَاؤُكُمْ فِيهِ؟ ومن هؤلاء؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إنّ بِالْمَدِينَةِ لَأَقْوَامًا مَا سِرْنَا مِنْ مَسِيرٍ وَلَا هَبَطْنَا وَادِيًا إلّا كَانُوا مَعَنَا،حَبَسَهُمْ الْمَرَضُ، فَنَحْنُ غُزَاتُهُمْ وَهُمْ قَعَدَتُنَا في بيوتهم. وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَدُعَاؤُهُمْ أَنْفَذُ فِي عَدُوّنَا مِنْ سِلَاحِنَا". أي أن الدعوات الكثيرة التي دعوا بها وهم في بيوتهم قد استجابها الله.

يُذكر أنّه عند رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك خرج أهل المدينة لاستقباله استقبالًا حارًّا. فقد كُتب أنّه عند عودته ﷺ من غزوة تبوك خرج أهل المدينة – من رجال ونساء وأطفال – وكلّهم مفعمون بمحبة رسول الله ﷺ وشوقهم لرؤيته وزيارته، حتى إنهم خرجوا من المدينة إلى موضع ثنية الوداع، وأخذوا ينشدون هذه الأبيات:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

إن استقبال أهل المدينة للنبي ﷺ بهذا الشعر وبهذه المشاعر الجياشة ذُكر في مناسبتين: الأولى: حين قدم ﷺ مهاجرًا من مكة إلى المدينة. والثانية: حين دخل ﷺ المدينة راجعًا من غزوة تبوك. ويرى بعض شارحي الحديث، مثل العلّامة ابن حجر العسقلاني شارح صحيح البخاري، أنّه من الممكن جدًا أن تكون الأشعار التي ورد ذكرها في رواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها مرتبطة بعودة النبي ﷺ من غزوة تبوك، لأن الناس – ومعهم الأطفال – استقبلوه حينها عند ثنية الوداع، إذ كان استقبال العائدين من جهة بلاد الشام يكون في ذلك الموضع. ولما سمع أهل المدينة بخبر عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك، خرجوا فرحين لاستقباله خارج المدينة عند ذلك المكان، كما يروي السائب بن يزيد: أتذكر أنني خرجت مع الأطفال إلى ثنية الوداع لاستقبال رسول الله ﷺ عندما كان راجعًا من غزوة تبوك.

وقد ذكر الإمام البيهقي أيضًا أنّ الأطفال استقبلوا النبي ﷺ بهذه الأبيات عند رجوعه من تبوك إلى المدينة. وعلى كل حال، فمن الممكن أن يكون هذا الشعر قد أُنشد في كلا المناسبتين، ولكن إنشاده عند الرجوع من تبوك هو الأرجح؛ لأنّ أهل المدينة خرجوا في تلك المناسبة وقد غلبتهم مشاعر الفرح والحنين لرؤية النبي ﷺ، خصوصًا وأن المنافقين كانوا قد أشاعوا أخبارًا كاذبة حول تلك الغزوة، فلما جاءهم الخبر بأن النبي ﷺ وأصحابه عادوا سالمين، كان ذلك كالماء الذي يُسكب على زرع يابس. ولذلك خرج مسلمو المدينة – صغارًا وكبارًا، نساءً ورجالًا – لاستقبال النبي ﷺ. وعلى الرغم من أنّ إنشاد هذا الشعر عند الهجرة من

مكة أمر ممكن، وأنّ التعبير عن المحبة قد وقع في المناسبتين، ولا حاجة للجدل في ذلك، لكن الثابت أنّ حبّهم للنبي ﷺ بعد قدومه إلى المدينة كان أعظم بكثير مما كان في أول الهجرة.

هناك وقائع أخرى من السيرة أيضا وإن شاء الله سأتناولها في المستقبل.

*****